أوزان الشعر

٣ ـ الشعر العربي

للدكتور محمد مندور

ليس من شك في أن الخليل بن أحمد كان رجلا عبقرياً نفخر به مع من نفخر بهم من أجداد . ولكن العلم لا يعرف الوقوف ، ولقد تقدمت الدراسات اللغوية تقدما يحملنا على أن نطمح إلى معرفة أدق من معرفة الخليل بالعناصر الموسيقية في شعرنا العربي .

والذي لا شك فيه أن الخليل قد وضح حقيقة أساسية في الشعر العربي لا نستطيع أن نغفلها ، وهي انقسام كل بيت إلى تفاعيل متساوية ، كما هو الحال في الرجز والهزج وغيرهما ، أو متجاوبة (التفعيل الأول يساوي الثالث والثاني يساوي الرابع) كما هو الحال في الطويل والبسيط وغيرهما . وهذا التقسيم من أسس الموسيقى والشعر عند الأوربيين اليوم ؛ فهناك وحدات موسيقية متساوية isometriques وأخرى متجاوبة symetriques كما وضح الخليل .

ولكننا لا نكاد نترك وجود التفاعيل إلى بنية تلك التفاعيل حتى نختلف مع الخليل ، وذلك لأنه لم يدلنا على وحدة الكلام وهي المقطع . وأكبر ظني أن الخليل لم يعرف العروض اليوناني وإلا لفطن إلى المقطع ، وإن يكن قد علم فيما نرجح بالموسيقى اليونانية بفرعيها : (علم الإيقاع La rythmique وعلم الانسجام Les harmoniques) . والعروض اليوناني كما هو معلوم يقوم على المقطع ، والسبب الذي منع الخليل من الوقوع على المقطع مزدوج فيما أظن :

١ — عدم كتابة الحروف الصائتة القصيرة voyelles brèves التي نسميها حركات (الفتح والضم والكسر) في صلب الكتابة العربية التي لا تزال إلى اليوم مقطعية إلى حد بعيد ، بمعنى أننا نكتفي برسم الحروف الصامتة ، وأما الصائتة فلا تكتب إلا الطويل منها (الألف والواو والياء) . فكتابتنا وسط بين الكتابة الفينيقية والكتابة الإغريقية ، ومن الثابت تاريخياً أن الإغريق عند أخذهم بالكتابة الفينيقية قد أضافوا إليها رسوما خاصة للحروف الصائتة كلها طويلة وقصيرة . وأبنى على ذلك أن الخليل لم يفطن إلى أن الحروف الصائتة القصيرة تكون مع الحرف الصامت Consonne الذي توضع فوقه لحركة مقطعاً تاما مستقلا . ولهذا اكتفى في تقطيع التفعيل بالحروف التي تكتب مميزاً بينها بالحركة والسكون .

أحكامه « المائمة ! » كما عبر عنها مناظره الأستاذ المعروف ، والتي يصدرها في غير رعي ليهدم أمجاد شعرائنا والعقاد ومدرسة العقاد في مقدمتهم ... الدكتور مندور هو الذي قال : إن العقاد لا شأن له بالشعر ، وهو قول يكفي للرد عليه أن نقول ما قلنا ، لأن الذين يقولون هذا هم قوم لا بصر لهم بالشعر حقاً ، بل ربما كان الأفضل ألا يكون لهم شأن بالشعر على الإطلاق ... نقولها اليوم صرحاء بعد إذ كنا نلمح بها تلميحاً عسى أن ترعوي تلك الطائفة من الكتاب الذين لا هم لهم إلا هدم شعرائنا الذين نعتز بهم جميعاً وبلا استثناء لأنهم أعز علينا من ألف كاتب فج من أمثالهم ... ونحب أن نطمئن قراءنا وأن نطمئن الصديق الحميم الأستاذ مندور ، فنحن لم نر العقاد في حياتنا إلا مرة واحدة في مأتم ، ولسنا نطمع في صداقات جديدة بعد الذي بلوناه من صداقة السيد مندور ، ولكننا مع ذلك نعرف العقاد ونقرأه من نحو ثلاثين عاماً وقد كتبنا عنه سنة ١٩٣٠ ، إذ هو سجين في ذلك الوقت ، مقالاً تجفل منه الأبالسة ، بالمجلة الجديدة قدرنا فيه العقاد الشاعر والعقاد الكاتب ، مما كان سبباً في الأخذ بتلابيبنا في ذلك العهد الرجعي الأسود لا أعاده الله ... ومع ذلك فنحن ما زلنا نقول إن العقاد خيب آمالنا فيه ، وعسى أن يسعدها إن شاء الله ، أما أن نقول إنه لا شأن له بالشعر ، فنكون مجانين ـ نحن فقط دون تعريض بأحد ـ إذا لغونا بذلك مع من يلغون به ...

والعقاد على هذا من « الشعراء الكبار الذين يعجبوننا » كما زل قلم السيد مندور في مقاله ليسجل على نفسه الداعي الذي دعاه إلى كتابة ما كتب . وفرق بين أن يتفقه المرء في أعاريض الشعر ، وبين أن يكون شاعراً ، أو أن تكون له موهبة تذوق الأشعار وإصدار الأحكام عليها .

وسنأخذ قريباً إن شاء الله في نشر دراسات هادئة لكثيرين من الشعراء المصريين شيبهم وشبابهم لنبصر الذين كفروا بأمجاد الوطن بما ضلت أعينهم عن إدراكه من آيات العبقرية المصرية

وبعد ... فإني أعتذر للقراء عما فرط به القلم من لغو القول في هذا الحديث ولن أرد على لغو آخر قط .

دميانة غشيمة

٢ — السبب الثانى هو أن اللغة العربية كغيرها من اللغات السامية تغلب فيها الحروف الصامتة فيما يرجح ، وتلك الحروف يقع منها عادة الوقف ، أى السكون ، ولهذا لاح للخليل أن التتابع إنما يقع فى الحركات والسكنات ، بينما نجد فى لغة كاللغة اليونانية أن الحروف الصائتة هى الغالبة ، ولهذا لا نحس فيها بالسكنات الموجودة فى اللغة العربية ، بل نحس فوق كل شىء باختلاف كم الحروف الصائتة فى تتابعها .

هذان السببان لا يجوز أن يحجبا عنا الحقيقة اللغوية التى تصدق على كل لغة وهى أن المقطع هو وحدة الكلام . وفى اللغة العربية أربعة أنواع من المقاطع هى : (١) المقطع القصير المفتوح ، وهو المكون من حرف صامت وحرف صائت قصير (حركة) مثل المقاطع الثلاثة فى كَتَبَ (٢) المقطع الطويل المفتوح وهو المكون من حرف صامت وحرف صائت طويل (ألف أو واو أو ياء — حروف اللين) مثل « كا » فى كانت (٣) المقطع الطويل المزدوج وهو المكون من حرف صامت وحرفين صائتين مثل بَيْ bai فى بيت مع احتفاظنا بالمناقشة العلمية التى تدور حول طبيعة الياء فى هذا المقطع أهى صائتة أم صامتة (٤) المقطع المغلق وهو المكون من حرف صامت ، ثم حركة فحرف صامت آخر نحو « تُن » فى بيتٌ والحرف الصائت فى هذا المقطع قصير دائماً ؛ فهذا قانون هام من قوانين اللغة العربية وليس له استثناء إلا فى حالات محصورة أهمها حالات الوقف على الإسم المنون مثل « نارْ » ؛ فهى تتكون فى هذه الحالة من مقطع واحد مغلق حرفه الصائت طويل ، وكذلك الوقف فى حالتى التثنية والجمع مثل محمدانْ ومحمدونْ ، فالمقطع « دان » والمقطع « دون » كل منهما حرفه الصائت طويل ، وإذن فالقانون العام هو قصر الحرف الصائت فى المقطع المغلق ؛ فهل نعتبره مقطعاً طويلاً أم قصيراً ؟ الواقع أنه مقطع طويل ويأتيه الطول من الزمن الذى يستغرقه الحرفان الصامتان ؛ فهذا الزمن لا بد من حسابه وإن لم يحسبه علماء العروض الإغريقى واللاتينى . ولقد أثبت البحث الحديث أنه من الواجب أن يحسب كم الحروف الصامتة فى كافة اللغات ومن باب أولى فى اللغات السامية حيث تغلب تلك الحروف . ثم إنه إذا كان فى كافة اللغات حروف آنية momentanées كحروف الانفجار (باء وفاء مثلاً) ؛ فإن هناك حروفاً ممتدة continues كالسين واللام مثلاً ، فهذه من الممكن أن نمد فى نطقها كما نشاء . وإذن فالمقطع المغلق نعتبره طويلاً

ونخلص من هذا إلى وجود مقاطع فى اللغة العربية . وهذه المقاطع تختلف فى كمها . فهل نستنتج من ذلك أن الشعر العربى كمى بمعنى أن كل تفعيل فيه يتكون من مقاطع مختلفة الكم بنسب محددة ؟

ذلك ما رآه المستشرق إوالد Ewald فقد وضع للشعر العربى عروضاً على غرار العروض اليونانى وهو عروض مستقيم سهل الفهم مبسط عن عروضنا تبسيطاً كبيراً . ولقد درسناه فى العام الماضى للطلبة بالجامعة فأجادوا فهمه . ويستطيع القارىء أن يجده فى الجزء الثانى « من قواعد اللغة العربية » Arabic Grammar للمستشرق المشهور ريث Right ، ولكننا مع ذلك لا نقر إوالد ومن نحا نحوه من عامة المستشرقين فى اكتفائهم برد العروض العربى إلى المقاطع الكمية كما هو الحال فى العروض اليونانى واللاتينى ، وذلك لأنهم لم يبصرونا بالإيقاع Rythme ؛ فالكم كما قلنا لا يكفى لإدراك موسيقى الشعر بل لا بد من الارتكاز الشعرى الذى يقع على كل تفعيل ويعود فى نفس الموضع على التفعيل التالى وهكذا . ولقد كان للخليل على المستشرقين ميزة الإحساس بهذا الإيقاع فتتابع الحركة والسكون على نسب محددة يوضح ذلك الإيقاع ولا كذلك تتابع المقاطع المختلفة الحكم .

(الكلام بقية)

محمد منور

وزارة الصحة العمومية

المرافق العامة

مصلحة الشئون القروية

تقبل العطاءات لغاية ظهر يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٣ عن عملية إنشاء حوضين لغسيل الخضروات أحدهما بمهمشة والآخر بالمطرية ويقدم الطلب على ورقة تمغة فئة ثلاثين مليما للحصول على الشروط والمواصفات من المصلحة نظير دفع ١ جنيه بخلاف مائة مليم أجرة البريد .

١٠٠٣